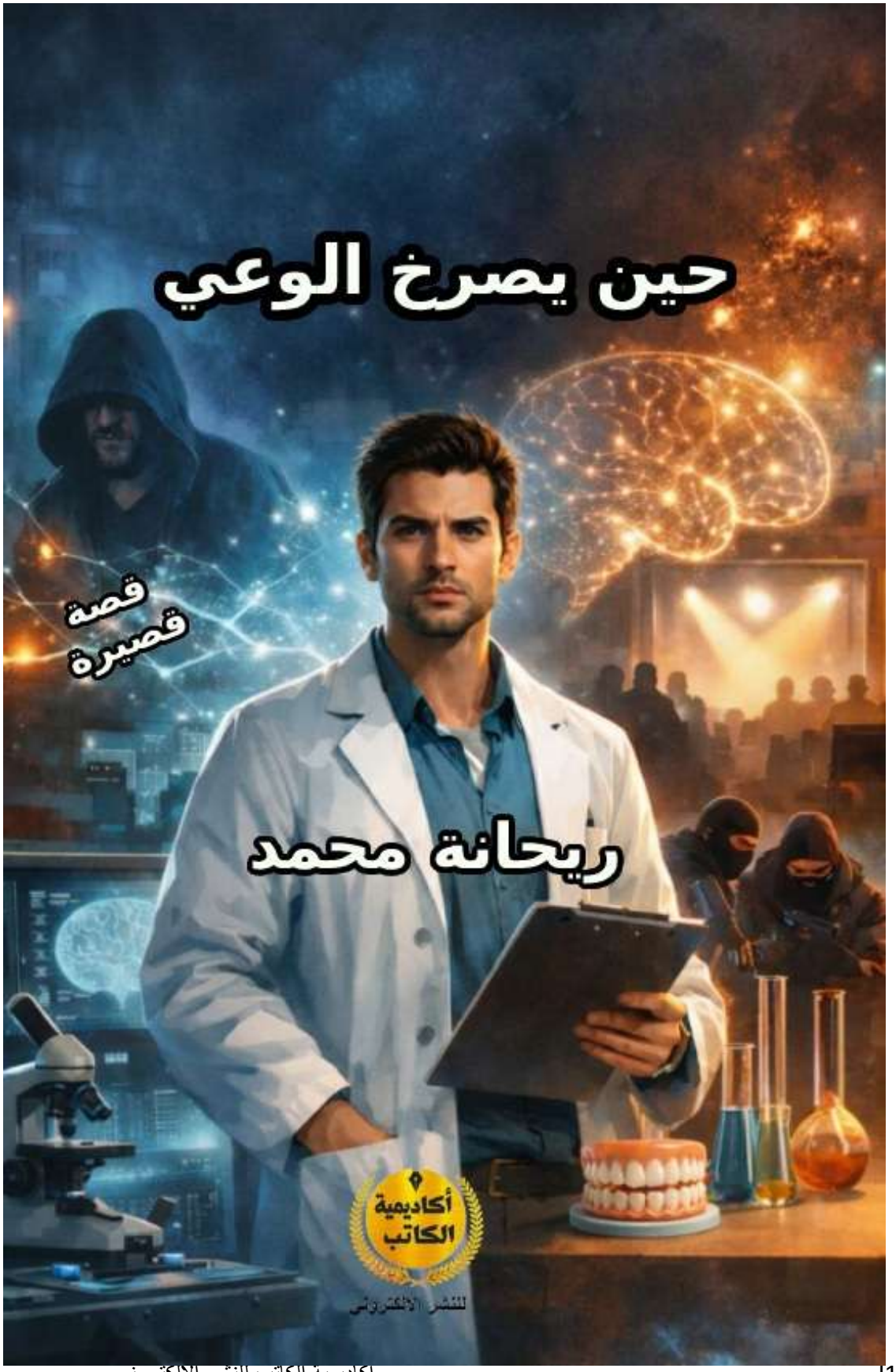
حين يصرخ الوعي
قصة قصيرة
ريحانة محمد
أكاديمية الكاتب
للنشر الإلكتروني

حين يصرخ الوعي

قصة قصيرة

ريحانة محمد

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: حين يصرخ الوعي

المؤلف: ريحانة محمد

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-21-1-260209

التليفون : ٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المقدمة

كان زياد يعلمّ قبل أن يجلس المريض على الكرسي، أنَّ الألم لا يبدأ من السِّنّ. كانت الغرفة بيضاءَ أكثرَ مما ينبغي، والضوءُ المسلَّط فوق الكرسي قاسيًا، لا يرحم العيونَ ولا الأفكار. وقف زياد ثابتًا، بمعطفه الأبيض النظيف، وساعَته الدقيقة التي لا تتأخر، وكلُّ شيءٍ فيه يوحي بالسيطرة... إلّا داخله. قال المريض بصوتٍ حاول أن يجعله طبيعيًّا: "أنا لا أخاف، ولكنّي لا أحب هذا المكان" ابتسم زياد. الابتسامةُ المهنية ذاتُها، التي تعلّمها مبكّرًا، والتي لا تبوح بشيء. غير أنّ الأرقامَ أمامه لم تكن تكذب. معدّلُ النبض أعلى من الطبيعي، وتوتّرُ العضلات ظاهر، ونسبةُ القلق المسجَّلة مرتفعة. ضغط زرَّ الجهاز الجديد، ذلك الذي لم يكن من المفترض أن يُستَخدَم بعد، الجهازُ الذي يقيس ما لا يُقال، ويحوِّل الخوفَ إلى إشارات. تساءل، وهو يراقب الشاشة: أهذا الألمُ ينتمي إلى هذا الرجل؟ أم أنّه يشبهه أكثرَ ممّا ينبغي؟ تذكَّر فجأةً أوّلَ مرّةٍ جلس هو نفسُه على هذا الكرسي، لا مريضًا، بل طالبًا أدرك أنَّ الخطأ هنا لا يُغتفر، وأنَّ التفوّق ليس خيارًا، بل شرطٌ للبقاء. قال بهدوءٍ محسوب: "سنبدأ الآن، فقط تنفّس." لكنَّ الكلمات كانت موجَّهةً إليه هو، أكثر ممّا كانت إلى المريض.

وللمرّة الأولى، سأل زياد نفسَه بصدق:

هل يمكن للوعي الزائد أن يكون نوعًا من الألم لا يُخدَّر؟

وكان هذا السؤال هو البدايةَ الحقيقيّة لكلِّ شيء.

١

- الوعي الذي لا ينام

لم يكن زياد يكره الصمت ، لكنّه تعلّم باكرًا أنّ بعض أنواع الصمت أشدّ إزعاجًا من الضجيج . كان ذلك الصمت يملأ الغرفة بعد خروج المريض ، حين أُغلِق الباب بهدوء ، وعادت الأجهزة إلى سكونها ، وبقي هو وحده أمام المرآة الصغيرة المثبّتة على الجدار. خلع قفّازيه ببطء ، وضعهما جانبًا كما يفعل كلّ يوم ، بترتيبٍ دقيق لا يختلّ. كلّ شيء في حياته يسِير وفقَ نظامٍ محسوب ، إلّا أفكاره، فكانت دائمًا تسبق اللحظة بخطوة، وتتأخّر عنها بخطوتين. نظر إلى انعكاسه. المعطف الأبيض، الملامح الهادئة، النظرة التي يظنّ الآخرون أنّها واثقة. لم يكن أحدٌ ليشكّ أنّ هذا الرجل يعرف تمامًا ما يفعل. لكنّ زياد كان يعرف الحقيقة. جلسَ على الكرسي المقابل للمكتب، فتح الملفّ الإلكتروني للمريض، ثم أغلقه دون أن يَقرأ شيئًا. لم تكن المشكلة في الحالة، ولا في التشخيص، ولا في الإجراء. كانت المشكلة في ذلك السؤال الذي بدأ يلحّ عليه مؤخرًا: لماذا يشعر بهذا الثقل كلّما ازداد علمه؟

منذ سنواتٍ، حين دخل كلية طبّ الأسنان، لم يكن يشكّ لحظةً في اختياره. لم يكن الحلم مفروضًا عليه، ولا الطريق مغلقًا أمامه. كان يملك ما يكفي من الدعم، وما يزيد عن الحاجة من التوقّعات.

قالوا له يومها: «ستكون الأفضل، هذا متوقَّع.» ،لم يقولوا: «ستتعب» ،لم يقولوا: «ستشكّ في نفسك» ،ولم يحذّره أحد من أنّ النجاح حين يكون مفروضًا يفقد لذّته. مرّت الأعوام، وكان زياد يتقدّم كما ينبغي. درجاته مرتفعة، تقييماته ممتازة، وأداؤه لا تشوبه هفوة. لكنّ القلق كان ينمو في الظلّ، هادئًا، ثابتًا، كأنّه جزءٌ من تكوينه.

في السنة الأخيرة، حين بدأ الاهتمام بالأبحاث يتسلّل إليه، لم يكن يبحث عن إنجازٍ إضافي، بل عن إجابة. لماذا ينهار بعض المرضى قبل أن يلامسهم الألم؟ ولماذا يبتسم آخرون وهم على حافة الانهيار؟. قرأ كثيرًا، بحث أكثر، حتى قاده الفضول إلى ذلك المشروع التجريبي الذي لم يكن قد أُعلِن عنه بعد. تقنيةٌ تقيس القلق قبل تحوّله إلى ألم، وتحوّل المشاعر إلى أرقام. فكرةٌ بدت مغرية، ومخيفة في آنٍ واحد. وحين بدأ التطبيق، اكتشف زياد أنّ بعض القراءات تشبهه أكثر ممّا ينبغي. في إحدى الليالي، عاد إلى

منزله متأخرًا، جلس في غُرفته المظلمة، وفتح الحاسوب. تأمّل البيانات، المنحنيات، التقارير. ثم أغلق كلّ شيء. لم يكن يخاف من الفشل، بل من أن ينجح ويكتشف أنّه ما زال فارغًا من الداخل. تساءل بصوتٍ خافت، كأنّه يخشى أن يسمعه أحد: هل الوعي نعمه؟ أم عبءٌ ثقيل لا يراه إلا من حمله؟

وفي تلك اللحظة، فهِم زياد أن رحلته الحقيقية لم تبدأ حين ارتدى المعطف الأبيض، ولا حين لُقّب بالطبيب، بل حين قرّر أن يواجه نفسه دون تخدير. وكان هذا أوّل اعترافٍ صامت في طريقٍ لم يعد الرجوع عنه ممكنًا.

٢

- فكرة عن الألم

لم يبدأ وعي زياد بالألم على كرسيّ طبيب الأسنان، بل في لحظةٍ أبسط من ذلك بكثير، لحظةٍ لم ينتبه لها أحد سواه. كان طفلًا يجلس في الصفّ الأوّل، قدماه لا تصلان إلى الأرض، وكتبه مرتّبة بعناية مبالغ فيها، كأنّ الفوضى كانت تخيفه منذ البداية. لم يكن أكثر الأطفال لفتًا للانتباه، لكنّه كان الأكثر صمتًا. يصغي أكثر ممّا يتكلّم، ويراقب أكثر ممّا يشارك.

في بيته، كان كلّ شيءٍ مكتملًا من الخارج. الاستقرار حاضر، والاحتياجات مؤمَّنة، والنجاح كلمة تُقال بثقة. لم يكن هناك ما يُشتكى منه، ولا ما يُبرّر التعثّر.

ولهذا، تعلّم زياد باكرًا أن الخطأ ليس خيارًا. حين كان ينجح، كان ذلك متوقَّعًا. وحين كان يخطئ، كان الصمت أثقل من اللوم.

ذلك الصمت الذي لا يعاقب، لكنّه يُشعِر صاحبه أنّه خذل صورةً ما رُسمت له مسبقًا. كبر وهو يحمل تلك الصورة، يحاول أن يطابقها بدقه، وألا يترك فراغًا، ولا شقًّا يتسرّب منه العيب. في المرحلة الثانوية، حين بدأ الجميع يتحدّث عن الأحلام، لم يحتج زياد إلى وقتٍ طويل ليختار. لم يكن القرار وليد شغفٍ مفاجئ، بل نتيجة طبيعية لمسارٍ طويل من الانضباط.

الطبّ...

لأنّه الدقّة، لأنّه المسؤولية، ولأنّ الخطأ فيه واضح، ولا يحتمل التأويل. اختار طبّ الأسنان تحديدًا، لأنّه يجمع بين العلم والتفاصيل الصغيرة. بين اليد والعقل. بين الألم والسيطرة عليه.

لم يكن يعرف حينها أنّ السيطرةَ الظاهرة تُخفي دائمًا خوفًا عميقًا من الفقد. في سنته الأولى، جلس على الكرسيّ نفسه الذي جلس عليه آلاف المرضى من بعده. لم يكن خائفًا، لكنّه كان متوتّرًا على نحوٍ لم يفهمه. وحين انغرزت الإبرة في لثّته، أدرك شيئًا

غريبًا: الألم لم يكن شديدًا، لكنّ انتظاره كان مرهقًا. في تلك اللحظة، ولدت في داخله فكرة صغيرة، لم يستطع تسميتها بعد.

كيف يمكن للعقل أن يضاعف الإحساس؟.

وكيف يمكن للخوف أن يسبق الألم ويجعله أكثر حضورًا؟.

مرت السنوات، وتحوّلت الفكرة إلى سؤال، ثم إلى هاجس. وحين صار طبيبًا، لم يكن يتعامل مع الأسنان فقط، بل مع الارتعاش الخفي في الأصابع، والتنهيدة المكبوتة، ونظرات العيون التي تقول أكثر ممّا تنطق. كان يرى نفسه في كثيرٍ من المرضى، في ذلك التوتّر الصامت، وفي الرغبةِ في الظهورِ بمظهر القادر، حتى وهو يرتجف من الداخل. وفي كلّ مرّة كان ينجح فيها، كان يشعر بانتصار ناقص. كأنّ شيئًا ما لم يُحْسَم بعد. في تلك الليلةِ بعد أن أنهى عمله عاد إلى غرفته، وأخرج دفترًا قديمًا لم يفتحه منذ سنوات.

كتب في أوّل صفحة: «الألم ليس في الجسد وحده، بل في انتظار الجسد لما سيحدث...«.

توقّف قليلًا، ثم أضاف سطرًا آخر: «وربّما...في وعيه الزائد«.

أغلق الدفتر، وأدرك، دون أن يشعر، أنّ ما يبحث عنه لم يكن بحثًا علميًّا فقط، بل محاولة متأخّرة لفهم نفسه. وكان ذلك أوّل خيطٍ واضح في شبكة الأسئلة التي ستقوده إلى ما لم يكن مستعدًّا له بعد.

٣

-الرجل الذي لا يتألّم

دخل رجلٌ العيادة في موعده تمامًا، لا قبل دقيقه، ولا بعدها. كان في منتصف الأربعينيات، ملامحه هادئة على نحوٍ يثير الريبة، عيناه ثابتتان، وصوته منخفض، كأنّه لا يحب أن يُلاحَظْ. رحّب به زياد، وأشار إلى الكرسي. جلس الرجل دون تردّد، ودون تِلك الحركةِ اللاإرادية التي يفعلها معظم المرضى حين يقتربون من الألم.

قال بهدوء: «أعاني ألمًا متقطّعًا.. لكنّي لا أشعر به كما ينبغي..«.

توقّف زياد عن تدوين الملاحظات، رفع رأسه ببطء، ونظر إليه نظرةً مختلفة. لم يكن الوصف مألوفًا، ولا طبيعيًّا. بدأ الفحص...كلّ شيءٍ كان سليمًا تقريبًا. لا التهاب واضح، ولا تسوّسٍ يبرّر الشكوى، ولا سببًا مباشرًا للألم. ومع ذلك، كانت قراءات الجهاز غير عاديّة. معدّل القلق... منخفض.

مؤشّرات التوتّر... شبه معدومة. والإشارات العصبيّة لا تتوافق مع ما ينبغي أن يَشعر به الجسد.

تساءل زياد في داخله: كيف يشكو من ألمٍ ولا يخافه؟

سأله بنبرةٍ متوازنة: «هل سَبق لك أن خَضعْتَ لعلاجٍ مؤلم؟..«

أجاب الرجلُ دون تردّد: «كثيرًا..«.

ثم أضاف، بعد صمتٍ قصير: «الألم لا يُزعجني...الانتظار هو المشكلة«.

تجمّد زياد للحظه. الجملة كانت مألوفة أكثر مما ينبغي، كأنّها خرجت من دفتره القديم. تابع الرجل حديثه، كأنّه يقرأ أفكاره: «حين تعرف أنّ شيئًا سيؤلمك، تتعب قبل أن يحدث. وحين يحدث يكون الأمر أبسطَ ممّا توقّعت.».. شعر زياد بانقباضٍ خفيف في صدره. لم يكن هذا مجرّد مريض، ولا مجرّد حالة عابرة. أنهى الجلسةَ دون إجراءٍ حاسم، واكتفى بتحديد موعدٍ آخر.

وقبل أن يغادر الرجل، توقّف عند الباب، وقال بهدوءٍ لا يخلو من معنى: «دكتور زياد...بعض الناس يشعرون بالألم لأنهم يفكّرون فيه أكثر من اللازم.».. ثم أغلق الباب خلفه، وبقي زياد واقفًا في مكانه،

ينظر إلى الفراغ. عاد إلى مكتبه،

فتح ملفّ المريض. الاسم كان عاديًّا، لكنّ الملاحظات لم تكن كذلك .

كتب بخطٍّ متردّد: «حالةٌ غيرُ متوافقة بين الإدراك والألم«.

ثم توقّف. هل كان الرجل يعاني خللًا؟.. أم أنّه وصل إلى درجةٍ من الوعي تجعله يتجاوز الإحساس؟.

في تلك اللحظة، أدرك زياد أنّ المشروع الذي يعمل عليه لم يعد مجرّد دراسة. لقد أصبح تجربة حيّة، والسؤال لم يعد نظريًّا. للمرّة الأولى، شعر بأنّ الإجابة التي يبحث عنها تقف أمامه، هادئة، غامضة، وتنتظر أن يُقرّر إن كان مستعدًّا لدفعِ الثمن. وكان يعلم في قرارةِ نفسه، أنّ بعض الأبواب حين تُفتح، لا تُغلق أبدًا.

٤

- حدود المسموح

لم يستطع زياد أن يتعامل مع الحالة كما يتعامل مع غيرِها. في الأيام التالية، عاد اسم الرجل إلى ذهنه أكثَر مما ينبغي، يتسلّل بين المرضى، وبين التقارير، وبين السطور التي يحاول أن يكتبها ولا تكتمل. كان يعلم أنّ ما رآه لا يمكِنُ تجاهله، لكنّه كان يعلمُ أيضًا أنّ بعض الأسئلة حين تُطرَح في المكان الخطأ تُغلق الأبواب بدلاً من أن تفتحها. وفي صباحٍ هادئ، دخل مكتب أستاذه المشرف الرجل الذي لم يكن صوته مرتفعًا، ولا ملامحه قاسيه، لكنّ كلماته كانت دائمًا محسوبةً كالمشارط. رفع الأستاذ رأسه عن الأوراق، وقال دون مقدّمات: «تبدو مشتّتًا يا زياد..«.

جلس قِبالته، ووضع الملفّ على الطاولة، كما لو أنّه يضع اعترافًا.

قال بهدوءٍ متماسك: «هناك حالة...

لا تنسجم مع ما نعرفه«.

تصفّح الأستاذ الأوراق ببطء، توقّف عند القراءات، عند المنحنيات غيرِ المألوفة، وعند الملاحظات المكتوبة بخطٍّ حَذِر.

سأل دون أن يرفع رأسه: «وهل تبحث عن تفسير؟ أم عن مغامرة؟«

أجاب زياد بعد تردّدٍ قصير: «أبحث عن فهم.».. رفع الأستاذ نظره إليه، نظرةً طويله صامته، ثم قال:

»الفهم الحقيقي يبدأُ حين نعرف أينَ نتوقّف.»

سَاد الصمتُ للحظه. ذلك الصمتُ الذي لا يُشبه الصمتَ السابق، بل يحمل تحذيرًا خفيًّا. قال الأستاذ بنبرةٍ أكثر جدّية:

»ما تتحدّث عنه ليس خارج العلم، لكنّه على حافته. وأنت تعلم أنّ الحوافّ أخطر من المراكز«.

شعر زياد بشيءٍ ينقبض داخله. لم يكن يبحث عن تجاوزٍ، ولا عن شهرة، ولا عن سبقٍ علميّ. كان يبحث عن إجابة تشبهه.

قال أخيرًا: «وماذا لو كان التوقّف هو الخطأ؟».. لم يُجب الأستاذ مباشرةً. أغلق الملفّ، ودفعه إليه ببطء، ثم قال: «إن قرّرتَ المتابعة، فعليك أن تفهم أنّك لن تختبر الألم فقط...بل مسؤوليته.».. خرج زياد من المكتب وقلبه أثقل مما دخل.

لم يُمنَع، ولم يُسمَح له صراحةً. تُرك في المساحةِ الرماديّة التي لا تحمي أحدًا. وفي المساء، عاد الرجل الغامض في موعده المحدّد.

جلس على الكرسيّ بالهدوء ذاته، ونظر إلى زياد نظرةً فاحصه.

قال قبل أن يبدأ الفحص: «هل وجدتَ ما تبحث عنه؟».. تردّد زياد للحظة، ثم قال: «وجدتُ أسئلةً أكثر.».. ابتسم الرجل ابتسامةً خفيفة، وقال: «هذا جيّد...الأسئلة الصحيحة أهمّ من الإجابات السهلة.».. في تلك اللحظة، أدرك زياد أنّه لم يعد وحده في هذه التجربة، وأنّ الخطّ الفاصل بين الطبيب والباحث بدأ يتلاشى. وأنّ ما ينتظره لم يكن مجرّد حالةٍ نادره، بل اختبارًا لحدود العلم، وحدود الضمير، وحدوده هو نفسه. وكان يعلم دون حاجةٍ إلى تأكيد، أنّ العودة إلى الوراء لم تعد ممكنه..

٥

- تجربه على حافة الواقع

عاد زياد إلى عيادته في صباحٍ هادئ، لكنّ قلبه لم يكن هادئًا. كان يعلم أنّ اليوم سيحمل شيئًا مختلفًا، شيئًا أكبر من أي حالة مرّت عليه من قبل. جلس الرجل الغامض على الكرسيّ كما اعتاد.

نظراته هادئة، لكنّ شيءً ما في صمته أوْحى لزياد أنّ الإجابة التي يبحث عنها قد تكون أقرب مما يظن. بدأ الفحص كالعادة،

لكن سرعان ما شعر زياد بشيءٍ غير مألوف: قراءات الجهاز لم تعد تتوافق مع أي معايير.

الأرقام تتذبذب بشكلٍ غيرِ متوقع،

والإشارات العصبية تُظهر تزامنًا مع تقلصاتٍ طفيفة في عضلاتِ الرَجُلْ،

كما لو أنّ الألم كان يتنقّل بين جسدِه وعقلِه في آنٍ واحد.

تساءل زياد في نفسه: «هل ما أراه حقيقي... أم أنّ الأجهزة تخدعني؟»..

قرر أن يسأل الرجل مباشرةً: «هل حدث لك شيء غريب في الماضي... أثر على إحساسك بالألم؟»..

ابتسم الرجل ابتسامةً قصيره، ثم قال: "نعم... قبل سنوات، واجهت حادثًا لم أرَ له تفسيرًا. ألمٌ لم يُفهم، شعورٌ لا يصفه أحد، حتى الأطباء الذين حاولوا علاج جسدي لم يستطيعوا... فهمه.».. ارتجف زياد شعورًا غريبًا. كأنّه أمام خيطٍ صغير قد يربط بين ماضي الرجل

وحالته الحاليه، لكن الكلّ غامض، والخيط رفيع، هشّ، يمكن أن ينقطع بأي لحظة.

اقترب زياد من المريض بحذر، وأمسك الجهاز مجددًا.

ضغط الزر، وبدأت قراءة الإشارات تنبض أمامه بطريقةٍ لم يشهدها من قبل.

وفجأةً، شعر زياد بانقباضٍ داخلي، لم يكن مجرد توتر مهني، بل شعورٌ بالمسؤولية، وكأنّه يحمل وزن الألم الذي يختبئ خلف تلك العيون الهادئة.

كانت التجربة صادمة. أدرك أنّ الأجهزة لم تكشِف عن ألمِ الجسد فقط، بل عن حَالة الوعي بأكملِها، عن كل لحظة خوف محتجزه، عن كل نبضة شعور مكبوته كانت تنتظر فرصةً للظهور. وقف الرجل للحظه، ونظر مباشرةً إلى زياد،

ثم قال: "هل ترى الآن؟ الألم ليس ما يلمسه الجسد، بل ما يحمله العقل قبل أن يبدأ الجسد بالشعور.»..

ارتجف زياد مجددًا، لكنّه عرف أنّه أمام اختبار أكبر من أي امتحان أكاديمي، أكبر من أي ضغط اجتماعي، أكبر من أي نجاح مادي أو لقب طبي. في تلك اللحظة، لم يعد الرجل مجرد مريض، ولا مجرد حالة غريبة

كان تجربة حية، وتحدٍ مباشر لحدود علمه، ولحدود فهمه لذاته، ولحدود ما يمكن أن يتحمّله عقله وقلبه معًا. وعرف زياد، بلا شك، أنّ العودة إلى الوراء لم تعد ممكنة.

وأن الطريقَ الذي اخْتاره لم يكن مُجردَ مِهنه، بل رحله إلي أعماق الوعي، إلى حيث الألمِ والمعرفة يتشابكان بشكل لم يتوقعه أحد.

٦

- على حافة المعرفة

مَرّت الأيام على زياد بسرعة متسارعة، لكِن كُل لحظه كانت ثقيلة كما لو أنّ الوقت نفسَه يتباطأ أمَامه. الجهازُ الذي اختبر به الرجل الغامض لم يعد أداه، بل نافذةً على شيءٍ أوسع، أعقد، وأكثر عمقًا. كانت النتائج التي حصَل عليها غيرُ متوقعه، وأظْهرَت أن العقلَ البشريّ يستطيعُ أن يضاعِف الألمَ أو أن يخفّفه حَسب طريقةِ استدعائه للذكريات، ووعيه بما يقترب. جلس زياد في مختبره الصغير، النظرة مصلوبةٌ على الشاشة، اليدان ترتجفان قليلًا، والقلب يثقل مِن شُعور غَريب بين الفرحِ بالنتيجة والخَوف من التبعات.

كان اكتشافه مهمًا: حيث أدرك أنّ الخَوف والانتظار يشكّلان نِصْفَ الألمِ الذي يشعر به المرضَى، وأن السَيطرةَ على وعي المَريض يُمكن أن تُغَيّر تجربة العلاجِ بأكملها. لكن مع هذا الاكتشاف، جاءَت مسؤوليةٌ لم يكن مُستعدًا لها. كيف يُمكِن أنْ يَسْتخدِم هذه المعرفة؟ هل يطبّقها على كل مريض؟ أم أنّها ستصبح سلاحًا نفسيًا؟ تذكّر الرجل الغامض، وعيناه التي تحدّثت بلا كلمات، ونظراتِه التي كَشفتْ عُمق الألمِ الذي لم يَكن جسديًا فحسْب، بل نفسياً وروحياً. شَعَرَ زياد بثُقلٍ غير مسبوق .

كان أمام لحظةِ اختيار: أن يصبح مُجردَ طبيبٍ يطبّق التقنية، أو أن يكون باحثًا يواجه الضمير مع العلم، ويتحمّل عبء النتائج، مهما كانت قاسيه. جَلس على الكرسيّ، وأغْمض عينيه لِلَحظه. صوت قَلبه يتردّدُ بيْن الإثارةِ والخوف. أدرك أنّ التجربةَ لم تعُد مُجَرد دراسة، بل مواجهةٌ حقيقيه لِذاته، لِخوفه، لِتوقّعاته، لإحساسه بالكفاية، ولكُل شيءٍ لم يُسْأَل عنه أحدٌ مِن قبل. فتح دفترَه القديم، وكتب سطراً واحداً:

»المعرفة ليسَت قوه إلا إذا عرفنا كيف نحْمِلها».. ابتَسم لنفسه، لكنّ الابتسامةَ لم تكن خفيفة، كانت ثقيلةً مليئة بالإدراك الجديد: أن العِلم وَحده لا يكْفي، وأن المسؤولية أكبَر مِن أي اكْتِشاف، وأن الرحلةَ إلى فَهْمِ العَقْل ليسَت سهله، ولا آمنه، ولا يُمكِن العودةُ عَنها. كانت تِلك اللحظة بدايةُ مرحلةٍ جديده، أكثر عمقًا، أكثر صعوبة، لكنها أيضاً أكثر صدقاً.

زياد لمْ يَعد مُجردَ طبيب، ولا مجرد باحِث، بل رجلٌ على حافةِ معرفةٍ

قد تغيّر ليسَ المرضى فقط، بل نفسَه بالكامِل.

٦

- حين يلتقي العلم بالواقع

عَاد الرجلُ الغامِض إلى العيادةِ في موعِده المُعتاد، لكِنَّ زياد شَعَرَ بقلقٍ لم يَعهدهُ مِن قَبْل. كَانت كُل خطوةٍ للرجلِ على الأرض، كل تنفّس وكأنّهم رسالةً صامته :

اليوم سَيحدثُ شيءٌ مُختَلف.

جَلس الرجُل على الكرسيّ، ونَظر إلى زياد بِعَينين تُشبِهانِ مرآةً تعكِسُ كل مَا خَفِيَ في داخِله مِن خوفٍ وتوقعات.

قال زياد بهدوء، لكِنَّ صوتَه يَرتجفُ قَليلًا:

» اليومَ... أريدُ أن أُجَرب شيئاً جديداً، شيئاً قد يُغيّر تَجرِبتك للألم.».. ابتسم الرجلُ ابتسامةً قصيره، ثم أومأ بِرأسه مُوافقًا وقال:

»أنا مستعد...».. لكِنه لم يكُن يعْلم أنّ الاستعداد الحقيقي لا يُقاس بالكلمات. بدأ زياد التطبيق، شاشاتُ الأجهزة تومض بالبيانات، الأرقامُ تتذبذب، وتُسجِل كلَ تغييرٍ في نبضاتِ المريض، وكُل ارتعاشةٍ لا يُرىَ أثَرها بالعينِ المجردة.

وفجأةً.. بَدأ الرجل يشعر بشيءٍ لَم يَسبق له أن شَعَرَ بِه: الألمُ ليسَ في الأسنان، بل يتضَاعف فِي ذهنه، ويتماهَى مع ذكرياتٍ قديمة أُقفِلت طويلاً داخِل عقلِه. ارتجَف زياد وهو يشْعُر بِثقل المسؤوليةِ يتَضاعف. لم يكُن مُجرد اختبار عِلمي بَعد الآن، بل تجربةً مباشِره على النفْسِ البَشرية، تُلامِس أعماقها، تَخْتبِر الحدود، وتَكشِف مَا لم يُكْشَف مِن قبْل. وقَف الرجلُ لِلحظه، نَظر إلى زياد بِعينين مَفتوحتين علَى وسعهما، وقال بصوتٍ منخفض:

»ألمٌ... أم وعي؟.أشعر بأنّي أرى كل شيءٍ في داخلي...» لم يسْتَطِع زياد إلا أن يُراقبه، يشْعر بأن قَلبه يتسَارع، وبِأن المسؤوليةَ لم تعد نظريه، بل حياةً حقيقيه تتأرجح بين يديه. ثم، في لحظةٍ واحدة، تجمّد الجهاز، وتوقفت المؤشرات، وكأنّ الواقِع نفسَه توقّف لِلحظة واختلط فيه العِلم بِالوعي، والألمُ بالفهم. جلسَ زياد في صمت ينظر إلى المريض وينظرُ إلى نفسِه، إلى كُلِ ما تَعلَّمه، وإلى كُل مَا لم يتعَلمه بعد. أدرك أنّه لا مجَال للعوده، ولا يُمكِن تجاهُلَ ما رآه. كانت هذه اللحظةُ التي يلتقيِ فيها العِلمُ بالواقِع،

ويبدأُ الإنسان بحق، بفهم حُدود مَعرفته، وبحِمل المسؤوليةِ التي تفوق كل ما عرفه من قبل. حين خرج الرجل من العيادة،

ظل زياد واقفاً، يتنفس ببطء، ويدرك أنّ هذه التجرب ستُغيّر ليس المرضَى فقط، بل حياته كلها.

٨

- تجاوز الحدود

عاد الرجُل الغامِض إلى العيادة،

لكن زياد شعر وكأنّ الجو كله مشحونٌ بشحنةٍ كهربائية، بِشعور لم يعْهَده مِن قبل. كانت أنفاسُ الرجلِ هادئة، لكِن كل حركةٍ له، كُل رمشة عين، كانت تتحدّث عن شيءٍ أعمق مما يَظهر. جَلس الرجَل على الكرسي، ونظر إلى زياد بعينين كأنهما ترى كل شيء قبل حدوثه.

قال زياد بعد لحظةِ صمت:

»اليوم... سنختبر شيئًا مختلفًا.

أريد أن أعرف كيف يمكن للعقلِ أن يتحكم في الشعورِ بالألم بشكلٍ كامل.«..ابتَسم الرجلُ قليلاً، لكن الابتسامةَ لم تكُن عَابره. كان فيها قُبول وتحدٍّ في الوقتِ نفسِه. بَدأ زياد التجربه، وهو يضغَط أزرار الجِهاز بِحَذرٍ أكْبر من أي وقتٍ مَضى. شاشاتُ البياناتِ تومِض،

والأرقامُ تتغير بِسرعةٍ مذهله، تسجّل تذبذبات في النشاطِ العصبيّ لم يسبِق له مثيل. فجأةً،

بدأ الرجل يشعر بالألم... بطريقةٍ غريبه. لم يكن الألمُ محصوراً في الأسنان، بل امتدّ إلى العقلِ نفسِه وإلى الوعي، إلى كل ذكرياته المكبوته، وكأنه يعيشُ كل تجرُبةٍ مؤلمه مَرت عليه مُنذ طفولته في لحظةٍ واحده. ارتجف زياد، وشَعر بالضغط النفسي وهو يتضاعف. لم يعُد مجردَ طبيبٍ، ولا مجرد باحِث.

كان يحمِل المسؤولية كاملةً، كل شعور، كل ألم، كل صرخةٍ محتمله.

قال الرجل بهدوء:

»أشعر بما لم أشعر به من قبل...

كأن الألم أصبح جزءً من وعيِى،

ولا أستطيعُ الهروب منه.».. شعر زياد بالإرتباك، وتملكَه شُعورٌ بالخوفِ من التجربةِ نفسها. لكن الفضول دفعه للاستمرار. ضغط أزرار إضافية، وأدخل بعضَ التعديلاتِ التي كانت ستُسجِّل كل موجةِ ألمٍ و كُل تفاعلٍ عصبي وتحوّلها إلى بياناتٍ قابله للقياس والتحليل. تضاعفَ الألمُ في الرجُل، لكن شيئاً غريباً حدث: بدأ وعيه يترتّب على الألم، يستوعبه، يفهمه، يحوّله من شعور سلبي إلى إدراك جديد. ارتجف زياد، ليس فقط من شِدة النتائج، بل من إدراكه أنّه ربما وَصل إلى ما لم يكُن يمكن تخيله:

تحويل الألمِ إلى معرفةٍ مباشره،

الوعي يتحكم بالألم نفسه، والعلم يُصبح أداة لفهم النفس البشرية بطريقةٍ لم تحدث من قبل.

جلس زياد متوتراً، يسجل كل رقم، كل تذبذب، كل إشارة. كان يعلمُ أنّه على حافةِ اكتشافٍ علمي مذهل، لكن الثمن كان كبيرًا جدًا:

ضغطٌ نفسي شديد على كل من هو جزء من التجربة، وأسئلة لم يستطع الجواب عنها بعد. وعندما انتهت الجلسة، جلس الرجل هادئًا،

ينظر إلى زياد، ثم قال:

»لقد رأيت اليوم حدود ما يمكن للعقل أن يتحمّله...لكننا لم نصل إلى النهاية بعد.»..ظل زياد واقفًا،

يتنفس بصعوبة، ويعلم أنّ التجربة تجاوزت كل حدود سابق تصورها،

وأن القادم سيكون أصعب، وأكثر تأثيرًا على كل شيء.

٩

ـ تسارع التجربة

عَاد زياد إلى المُختبر في صباحٍ مشحون بالتوتر، ليَجد نفسَه أمام مرحلةٍ جديده، ليسَت مجرد تجربة على مريض واحد، بل على مجموعةٍ صغيره من المرضى. تم ترتيب الجلساتِ بعنايه، كُل مريضٍ جَلس على الكرسي وِفقَ جدولٍ دقيق، وزياد يراقبُ البيانات على الشاشات، يتنقل بين الأعمدةِ والمنحنيات، والقراءات العصبية.

لكِن الرجُل الغامض لم يُغادر ذهنه،

كان حاضراً في كل رقم، كل نبضة، كل حركه. بدأ زياد بإجراء التعديلات التي اختبرها سابقاً، زيادة الحساسية للألم، رصْدُ النشاط العصبي لكل حالة، ومُراقَبةِ تفاعل وعي المرضَى مع الإحساس.

فجأةً، بدأ الرجل الغامض يظهر بشكل غير متوقع في النتائج، كما لو أنّ وعيه يمتدّ ليؤثر على الآخرين، تتزامن تذبذبات نشاطِه العصَبي مع تغيراتٍ في المرضى الآخرين، الأجهزةُ تُظهر نمطاً جديداً لم يشاهِده زياد مِن قبل.

ارتجف زياد، وشعر بثقل المسؤولية وهو يتضاعف. لم يعد يتحكّم بتجربة واحدة، بل أصبحَت كل خيوط المراقبةِ متشابكه، والضغط النفسي يُثقِل كاهلَه أكثر من أي وقتٍ مضى. تحَدث الرجُل الغامض بصوتٍ منخفض، عبر مكَبر الصوت المدمَج في النظام التجريبي:

»ما تَرينه ليس مجرد بيانات...

إنه وعي مشترك، تداخل الأحاسيس، إعادة تشكيل الألم داخل العقل البشري«.

زاد الفضول والقلق معًا، أدرك زياد أنّ الحدودَ التي وضعها لنفسه قد تجاوزت، وأن النتائج لم تعُد علماً محايداً، بل قوة حقيقية يمكن أن تغيّر تجربة البشر مع الألمِ والوعي.

وفي إحدى اللحظات، بدأ أحد المرضى يتلوّن وجهه بإرتباك، وبدا وكأن الألم أصبح جسديًا ونفسيًا في الوقت نفسه، كأن وعيه يحاكي حالة الرجل الغامض، ويتعلمُ السيطرة عليها أو استيعابها. شعر زياد بالرعب والإثارة في آنٍ واحد،

يُدرك أنّه وصل إلى مرحلةٍ لم يكُن أحد يجرؤ على تخيّلِها، حيثُ يصبِح الألمُ ليس مجرد إحساس، بل أداةً لفهم العقل، المشاعر، والوعي البشري بالكامل. جلس زياد متوترًا يسجل كل تذبذب، كل تفاعل وكل تغير وهو يعلم أنّه على حافة اكتشافٍ مذهل، لكن الخطَر النفسيّ، والعلميّ أكبرُ من أي وقتٍ مضى. وعندما انتهت الجلسة،

ظل الرجُل الغامض هادئًا، ينظرُ إلى زياد ويقول:

»لقد رأيتَ حدود العقل البشري...

لكنك لم تصل بعد إلى القمه«.

أدرك زياد أنّ ما بدأه، لم يعد مجرد تجرُبَةٍ علمية، بل هي رحلةٌ عميقه في فهم الإنسان، ووعيه، وآلامه،

ورحلته الخاصة معها لن تكون سهله.

١٠

ـ لحظة الاكتمال

جلس زياد في عيادته، وهو يراقب آخر النتائج على الشاشات، تشابكت الأرقام، البيانات، وقراءات النشاط العصبي بطريقةٍ لم يسبق لها مثيل.

ابتسم لنفسه بصمت، كأنّ عقله كله صار واضحًا أمامه، كل شيءٍ أصبح مفهوماً، وكل سؤالٍ قديم عن الألم والوعي وجد إجابته. تذكر كُل التجارب السابقة، كل جلسةٍ مع الرجُل الغامض، كل ضغْط نفسيّ، كُل ارتعاشٍ في قلبه، وكان يُدرك أنّ كل ذلك لم يذهب سُدى.

التجربة نجحت: الألم لم يعد مجرد شعور جسدي، بل أصبح قابلاً للفهم والتحكمِ عَبر الوعي. العقل البشري يستطيع تحويل الإحساس من ألمٍ إلى معرفه. وعي المريض عند توجيهه بطريقةٍ صحيحه يمكن أن يتحكم بالكامل في إدراكه للألم. جلس زياد يكتُب ملاحظاته الأخيرة، وبين سطِر وآخر، كان يُدرك أنّه قد وصل إلى حدودٍ لم يصِلْها أحدٌ مِن قبل. كل فكره، كل فرضيه، كل تجربه، أصبحت الآن خريطةً كامله لآليةِ عملِ العقل البشري مع الألم والوَعي. ابتعد عن الأجهزة، وأغمض عينيه لِلحظه،

يتأملُ الرحلةَ التي خاضها، التضحيات، الضغط النفسي، المواجهات الداخلية ،كل شيء.. وأدرك أنّه لم يكتفِ بالعِلم وحده،

بل تجَاوز حدودَ النفسِ البشرية،

ووجد الإجابة التي طالَما بحثَ عنها منذُ البِداية. نظَر إلى الرجلِ الغامض الذي كان يجلس هادئاً،

وكأنّه يعرف أنّ الرحلة قد اكتملت.

ابتسم زياد، وقال:

»لقد فهمت... كل شيء، الآن أنا جاهز لإظهار ما اكتشفتُه للعالم«.

لكنِ الابتسامةُ لم تكُن خاليةً من القلق. كان يعرف أنّ النجاحَ لا يأتي بلا ثمَن، وأن الإعلان عن التجربة وعن اكتشاف هذا العمق في العقلِ البشري، سيجذبُ الانتباه، وقد يثيرُ الحسد، الطمع، وربما الخطر. جلسَ أمام دفتره، وكتبَ سطراً واحداً:

»كل شيءٍ أصبح واضح... لكن العالم الخارجي لا يعرف بعد ما ينتظره.».. وبهذه اللحظة، شعر زياد أنّ الفصلَ القادم سيكون البداية الحقيقية لمواجهةِ العالم،

ولمعركةٍ لم تكُن علميه فقط، بل نفسيه، وربما خطيرة على حياته وعلمه.

١١

ـ عرض المعرفة وخطر الطمع

جَلس زياد في قاعةِ المؤتمرات،

الضوء الأبيض يغمُر الجُدران، والكراسي ممتلئة بالدكاترة والعلماء، كلهم ينتظرون عرض التَجربةِ التي قَضى عليها أشهراً.

كان قلبه يخفق بِسرعه، لكِن العَقْلَ كان هادئاً، يَحْمِل كل الأرقام، كل الرسوم البيانية، كل النتائج التي اكتشفها، كل الفهم العميق الذي وصَل إليه بَعد رحلةٍ طويله من التجربةِ والضغط النفسيّ. وقفَ أمام المنصةِ ونظر إلى الجمهور،

وأدرك أنّه الآن ليسَ مجرد طبيب أو باحث في مختبره، بل حَامل مفتاح أسْرار العقلِ البشري، وحامٍ لمعرفةٍ لم يَصِل إليها أحدٌ مَن قبل.

بدأ العرض. شَرع في شَرح التجربة، الأجهزة، البيانات، طريقة التحكم بالوعي والألم، وكيف أن العقْل يُمكن أن يُحَوِّل شُعور الألمِ إلى معرفه، وكيف يُمكن توجيه الوَعي البَشري بشكلٍ دقيق لِتغيير الإدراك. تسَلْسَل الكلام بَسلاسَة،

والشرائحُ تُعرض الرسوم البيانيةَ والمنحنياتِ والأرقام التي لا تكذب.

صَمْتُ القاعةِ كان حاداً، كُل شَخصٍ فِيها يشعُر بثُقل ما يسمعه، وبعبقريةِ هذا الإكتشاف،

وبأن أمامهم شيئاً قد يغيّر فهمهم للطبِ والعلم النفسي إلى الأبد. لكن مع كل لحظة نجاح، شعر زياد بتوتر آخر، أشخاص في الخلف يراقبونه بعينٍ لم تخفِ الطمع، هم لا يريدون فَهم المعرفة، بل يريدون اقتناصِها قبل أن تُصبحَ معروفةً رسمياً، استغلالها، سَرِقتها، وربما إعلانها باسمهم. شَعر زياد بقُشعريرةٍ تسري في جَسده، لم يكُن أمامه خَيارٌ إلا التركيز، ألا يظهر خوفه، وألا يسمحَ لأحدٍ بإفساد لحظة اكتمال رحلته. تابَع العرض وشرح النتائج، التجارب، تحاليل البيانات، كل شيء بدقة مذهلة، والأسئلةُ تنهال مِن الحضور، لكن زياد يجيب بهدوء وثقه، وكل إجابةٍ تعكِس سيطرةً كاملةً على

المعرفةِ التي يمتلكها. لاحظ أحدُ المتواجدين شخصاً ذو نِيةٍ واضحه للسيطرةِ على اكتشافه، يحاول استخدامَ أي لحظةِ ضعفٍ في كلام زياد، أو أي تردد في عرضه، لِكي يلتقط ما يُمكن سرقته قَبل أن يُسجل رسمياً. لكن زياد كان مستعداً، كل خطوة محسوبة، كل رقم موثق، كل فرضية مثبته بدقه،

حتى لو حاول أحدٌ سرقة الفكره،

ستكون الأدلة واضحة لا يمكن التشكيك فيها. وبينما يُنهِي العرض، تقف القاعة لتصفّق. الإعجاب واضح، والأصوات تتحدث عن عبقريّة الاكتشاف، لكن في نفس الوقت، ظل البعض يراقبونه ويفكرون في طرقٍ غير شريفةٍ للاستفادة من هذا النجاح.

جَلس زياد في مكانه بعد العرض،

ينظر إلى الأوراق، الأجهزة، وملفاته، يشعر بنشوة الانتصار، لكن وعيه الكامل بالخطر المحيط به جعله يقفز فوق شعور الانتصار، ويستعد لما سيأتي بعد ذلك، لأن المعرفة الكبيرة دائمًا تَجلبُ الطمع، والمعركةُ الحقيقية لم تبدأ بعد.

١٢

ـ الطمع والخطر

لَم تمر سوى أيام قليله بعد عرضِ البحث، حتى بدأ زياد يشعر بضغطٍ غير مألوف، اتصالات مجهولة، رسائل غريبه، وزملاء يُظهِرون اهتماماً مبالغاً فيه. كان يعرِف أن النجاحَ يجذب الطمع، لكن ما شعر به هذه المرة كان مختلفًا... أقوى، أكثر مباشرةً. في صباحٍ هادئ،

وصل إلى المختبر لِيجد بعض الملفاتِ مفتوحه على الطاولة، وبعضُ الأجهزةِ مضبوطة على إعدادات لم يلمسها هو. الدماء تجمدت في عروقه، أدرك فوراً أن هناك من حاول التسلل إلى بحثِه ومحاولة سرقة كل ما عمل عليه أشهراً طويله. جلس على الكرسيّ، يتنفس بعمق، فَكر في كَل النتائج وكل البيانات وكل النقاطِ التي قد تُسرق، والأخطر أن المعرفة نفسها، التي عمل عليها بكل دقة، قد تُحوَّل إلى أيدي أشخاصٍ لا يُهِمهم سوى الشهرةُ أو المال.

دخل أحد المساعدين إلى المختبر،

وحذره بصوت منخفض:

»دكتور... أظن أن هناك من يراقبك...ويحاول نسخ بياناتك قبل أن تُنشر رسميًا.«.. ابتلع زياد رِيقه ونظر إلى الشاشات، كل شيء مضبوط لكن العَقل بدأ يُحلل ويفَكر في الخططِ الممكنة، كيف يمكن حمايةُ البحث؟.. كيف يمكنُ مواجهة الطمع قبل أن يتحوّل إلى خسارةٍ حقيقيه؟.. في تلك اللحظة، وصلت رساله إلكترونيه مجهولة، تتضمن نسخةً من بياناته مع تهديد خفي:

»أنت لا تعرف من حولك... قد نخسر قليلًا، أو أكثر، إذا لم نتعاون.«.. ارتجف زياد، لكن قوةَ السيطرة على نفسِه ومهارتِه العلمية كانت أقوى، ابتسم ابتسامةً هادئة، كتب رداً مختصراً، حذراً، لكن مليئاً بالوعي: «كل شيء محفوظ وموثق. أي محاولةِ سرقه ستكشف فوراً».. جَلس يُفكر وأدرك أنّ المواجهةَ لن تكون علميةً فقط، بل أخلاقيةً ونفسيةً أيضًا،

فالأشخاص الطامعون لن يتوقفوا إلا عِندما يواجهوا الحقيقةَ كامله.

قَرر زياد ألا يَترك شيئًا للصدفه،

فبدأ بتنظيم كل البيانات وتحويل كل تجربةٍ إلى ملفاتٍ مؤمنه بشكلٍ كامل، وتسجيل كُل جلسة بالفيديو،

مع توثيقِ كُل رقم وكُل قراءةٍ دقيقه. وفي نفس الوقت، بدأ يخطط للخطوةِ التاليه:

عَرْضُ البحث العلمي بأمان للعالم،

ولكن بطريقةٍ تجعل أي محاولة سرقةٍ مستحيلة. جلس الرجل الغامض معه لحظة، ونظر إليه بعينين هادئتين وقال:

»لقد وصلت إلى مرحلة الاختبار الحقيقي،«.. ثم قال بصوت منخفض:

»النجاح العلمي لا يكفي...

يجب أن تحمي ما اكتشفته، ليس من الآخرين فقط، بل من الطمع نفسه.«.. ابتسم زياد، كان يعلم أنّ الرحلة لَم تنته بعد، لكِن هذه المرة، كان مستعداً، قلبه، عقله، ووعيه بكل ما يمتلكه، جاهزون لمواجهة أي تهديد، لحماية المعرفةِ التي عمل عليها طوال حياته.

١٣

- الهجوم على المعرفة وكشف الحقيقة

فُتِحَ البابُ فجأه، وصوت خطوات سريعة يملأ أرجاء المختبر. رفع زياد رأسه فوراً ليجد شخصاً مجهولاً يُحاول الوصول إلى جِهازه الرئيسيّ ويحمل أدوات إلكترونيه متقدمه. لم يتردد لحظه وضغط على زر التنبيه، لكِن اللص كان سريعاً، محترفًا، يعرف ما يفعله.

حركةٌ واحده خاطئة، وفجأةً تنبَّهت جميع الكاميرات، وأجهزة الإنذار بدأت تومض في أرجاء المكان.

الشاب المتسلل توقف لِلحظه و

حاول المراوغة، لكن كل خطوة كانت مُراقبه اقترب منه زياد بخطواتٍ حاسمه ثم نظر إلى عينيه وقال بصوتٍ حاد:

»كل شيءٍ موثق. كل حركةٍ تُسجّل. توقف الآن!«.. حاول الشاب الهرب،

لكن الممرات مغلقة تلقائيًا، والأجهزةُ تحاصر أي محاولةٍ للعبث بالبيانات. تسَارعت نبضات قلب زياد، شَعر بقوةِ الطمع تقتحم المكان، لكِن وعيه وسرعته وتجربته العلمية كانت الدِرعَ الذي لا يُخترَق. في زاويةِ الغرفة، كان الرجل الغامض يراقب المشهد بصمت وابتسامة صغيره ترتسم على وجهه، وكأنّه يعرف أنّ هذه اللحظة هي اختبار آخر: اختبار قدرة زياد على حماية المعرفة،

بين يديه، بين عقله، وبين الطامعين الذين لن يتوقفوا عند أي حد. أمسك زياد بالشاب وأخرج كل الأدلة المسجلة على المحاولة،

وأظهرها للأطباء والعلماء المتواجدين في المبنى. البيانات كانت واضحة، كل حركة، كل محاولة اقتحام موثقة بالكامل.

وقف رئيس القسم أمام الجميع وقال بِحزم:

»هذا السلوكُ غير مقبول على الإطلاق. لا يحق لمن قام بمحاولة سرقة بحث علمي أن يكون طبيباً،

وكل الإجراءاتِ القانونية ضدّه ستُتخذ فورًا.».. ارتجف الشاب وحاول الدفاع عن نفسه لكن الأدلة كانت دامغة والأطباء لم يتركوا أي مجال للتبرير. تم فَصل الشاب من العمل، وأصبح معروفاً أمام الجميع أنّه حاول العبث ببحث زياد دون وجه حق. جلس زياد على كرسيه،

يتنفس ببطء، ويشعر بخِفةٍ غريبه بعد التوتر الشديد وأدرك أنّ الحق قد انتصر، وأن عمله محفوظ وآمن الآن. بعد ساعات قليله، اجتمع جميع أعضاء مجلس القسم، وأعلنوا لزياد قرارًا رسميًا:

»سننظّم مؤتمرًا صحفياً كبيراً

سيُعلَن فيه عن اكتشافك العلمي الرائد، ليَعرفَ العالمُ أجمع الإنجاز الذي حققته، ويُحتفى بالبحث كما يجب، بعيدًا عن أي طامع يحاول سرقته.».. ابتسم زياد بابتسامة هادئة أحس بأن ثقل الأشهر الماضيةِ خفّ وتحققت أخيراً لحظةُ الاعتراف بالجهد العلمي، لحظةٌ سَيعْلن فيها للعالم عبقريته، ولكن أيضًا عن قِيمتهِ الأخلاقية و عن صبره، إصراره، وعن كل ما عَانى ليَصل إلى هذه القمه. جلس الرجلُ الغامض بجانبه، وقال بصوت منخفض:

»الآن أنت جاهز، ليس فقط لنشر العِلم، بل لتكون مثالًا للعالِم الذي يحمي المعرفة ويواجه الطمع بكل حزم.».. أومأ زياد برأسه وهو يعلم أنّ الرحلة لم تنته بعد، لكن هذه المرة، كانت السيطرةُ على المعرفةِ كاملة، والمرحلة القادمة ستكون إعلان الإنجاز للعالم، ولن يكون هناك مجال للسَرِقةِ أو الطمع مرة أخرى.

١٤

ـ إشراقة المعرفة والاعتراف العالمي

ارتفعتِ الستائرُ في قاعةِ المؤتمر الكبير، والأضواء سلطت على المنصة حيث يَقف زياد، يحمل قلباً مليئاً بالإثارة، وعقلاً مستعد لعرض أشْهَرِ اكتشافٍ علميّ في حياته. الجمهور كان متنوعاً، علماء من جميع أنحاء العالم، صحفيون، باحثون، ومتخصصون في علوم الأعصابِ والطب النفسيّ، جَميعهُم ينتظِرون بشغفٍ ما سَيقدمه هذا الطبيب الشاب. بدأ زياد العرض،

شَرع في شرح رحلته العلميةِ الطويلة وكيف استطاع رَصْدِ العِلاقةِ بينَ الألمِ والإشاراتِ العصبية، وكيّف تَمكن العقْل البشريّ مِن تَحويلِ الألمِ إلى معرفه، وتوجيهِ وعي المريضِ للتعاملِ مع شعوره بطريقةٍ لم يُفَكر بها أحدٌ من قبل. كانتِ الشاشاتُ تَعرض

الرسومَ البيانية، والمنحنيات، والقراءات الدقيقة لكلِ موجةٍ عصبية، والجمهورُ يُراقِبُ كُل تفصِيلة، كُل رقم، كُل تجربة، وكل تفسير. وبينما يَشرحُ زياد، لاحظ الجميعُ براعةَ الفَهمِ العميق، والطريقةُ الجديدة التي كشف بها الصلةَ بيّن الألمِ والوعي،

وأن هذا الاكتشاف لمْ يُحاوِل أحدٌ فهمه بِهذه الطريقةِ من قبل. بدأ الجمهور بالتصفيق تدريجياً، ثم تحول التصفيقُ إلى إعجابٍ واسع، أصوات الإعجاب والدهشة تعلو القاعة، والعلماء يتبادلون النظرات والهمسات:

»لم أرَ أحدًا يفهم الصلة بين الألم والإشاراتِ بهذه الدقة«!

»هذا الاكتشاف سيغير طريقة فهمنا للوعي البشري!«.. جلس الرئيس التنفيذي للمؤتمر، وقال بصوت حازم:

»زياد أثبت اليوم أنّه ليس مجرد طبيب أو باحث، بل عبقريٌ حقيقيّ،

وقدّم اكتشافاً سيبقى مرجعاً في علوم الأعصاب لفترة طويلة«.

ثم أُعلن رسمياً عن مَنحِهِ جائزةً عالميه مرموقة، تقديراً لاكتشافه الرائد، وتكريماً لموهِبته الفذَّة،

ولِتسليط الضوء على مكانتِه بيّن كِبار العلماء العالميين. ابتسم زياد بابتسامةٍ هادئة، يشعر بثقل الأشهر الماضية يخفّ، والاعتراف العالمي يملأ قلبه شعوراً بالفخر، لقد أصْبحَ ليّس فقَط طبيباً ناجحاً، بل عالماً معروفاً اسمُه سَيُذكر في جميعِ المؤتمراتِ والدورياتِ العلميةِ الكبرى. الصحفيونَ اقتربوا، وسألوا عنِ الخطواتِ التالية، هل سَيستمر في البحث؟ هل سيكشف المزيدَ من الأسرار؟ وكلهم يُدركون أنّ اكتشَافه لمْ يقتَصِر على الطب فقط، بل فتح آفاقاً جديده لفهم النفس البشرية والعقل البشريّ بطريقةٍ لم تُعرَف مِن قبل. جَلس الرجَل الغامض بجانبه وقال له

»الآن الجميع يعرف ولكن الطريق لم ينته بعد...الاعتراف العالمي مجرد بداية لمراحل أعظم، وأنت الآن جاهز لتصبح من بين عمالقةِ العلم.«... شعر زياد بثقل المسؤولية، لكن مع ذلك، كان الفخرُ يملأ قلبه، الإعجاب العالمي يحيطه،

ومكانتَه بين العُلماءِ أصبَحت ثابته، لا يمكن لأحدٍ أن ينكرها، لقَد وصَل إلى القمه، وتحولت رحلته الطويلة من اكتشاف شخصي إلى إرثٍ علميٍ عالميّ.

١٥

- عودة النصر والتأمل

عَاد زياد إلى مَنزلهِ بعد أيامٍ طويله من المؤتمر والاحتفال العالمي، المدينةُ كانت هادئة لكن قلبه كان يفيضُ بالحياةِ والحماس، كُل خطوةٍ يخطوها كانت مليئة بِفَخرٍ داخليٍ عميق، بِنجاحٍ حَققه بِعَرق الجَبين وبإرادةٍ لا تَلين. جَلس على كرسيِّه المَريح، نَظر حَولهُ، وابتسَم بهدوء، تَذكر كُل ساعاتِ التعب، كل التجارب الطويله، كَل لحظة شكٍّ واجهَته، كُل ضُغوطٍ نفسيةٍ واجهها أثْناء رِحلته الطويلةِ نَحو النجاح. أخرج دَفتر مُذكراته، وراح يفتَح الصفحات القديمة، تلك الصفحاتُ المليئة بالخطوط المُتشَابِكَة والأفكارِ المُتناثرة، والتحدياتِ التي كَتبها بيده خِلال سنوات التجارب.

بدأ يكتب وبصوتٍ هادئ، كأن كل كلمة تُخرج عبء السنوات الماضية قال:

»لَم أستسْلم... لَم أسمَح للضغطِ أو التَعبِ أو الطَمع أن يُوقفني. كُل لحظة صعبة كانت درساً، وكل تجربةٍ فاشله كانت خطوةً نحو النجاح.».. واصل الكتابة، يُذَكِّر نفسه بكُل صبره، بكُل إصراره،

وبكُل لحظةٍ اختبر فيها قوته العقلية والجسدية، وبكيفيةِ تحويل كَل ألمٍ إلى معرفه، وكل تحدٍّ إلى إنجاز. رفع رأسه للحظه ونظر إلى النافذة وإلى السماءِ التي بدأتْ تكتَسي بألوانِ الغروبِ الهادئة، وشعر بأن العَالم كُله قد احتَفى بِه، لكِنَّ الأهم من كل التصفيقِ والجائزة، هو شعوره الشخصي بالنصر على نفسه وبأنه لم يستسلم أبدًا وبأنه استطاع أن يُثبِت أنّ الإرادة تَصْنع المعجزات.

أغلق الدفتر، ووضع يده على قلبِه و ابتسم ابتسامة ملأها الرضا العميق وفكر في المستقبل وفي الاكتشافات القادمة، لكن في هذه اللحظة، كان مجَردَ رجلٍ فخور بما حَققه، وبالرحلةِ التي جَعلته يصِل إلى هُنا، رحلةٌ لم تكُن سهله، لكنها صنعت منه ما هو عليه الآن. وكتبَ في نهايةِ الصفحة الأخيرة، كلمات ستظلُ ذِكرى للأبد:

»لقد تعلَّمتُ أن الإرادَة أقوى من الألَم، وأن المثابرةَ تصنعُ من الحُلم حقيقة، وأن كُل خُطوةٍ صعبه قادتني إلى نور لم أكن لأراه لو استسلمت«.

تمت

ريحانة محمد

لمتابعة الكاتبة على الفيس بوك:

/https://www.facebook.com/share/1GYzSymbyX

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023